

مَا ذُئِبَانَ جَائِعَانِ

مُحَمَّدٌ بْنُ هَارِثِ بْنِ دَاخِلٍ



www.miraath.net

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه اللهم؛
اشفِ شيخنا ، وعجل في شفائه واجمع له بين الأجر والعافية.
قال الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - في شرح حديث ما ذنبان جائعان

ومن هذا الباب - أيضا - أن يُحِبَّ ذو الشرفِ والولاية أن يحمداً على أفعاله ويُثني عليه بها ، ويطلب من الناس ذلك ، ويتسبب في أذى من لا يُجيبه إليه ، وربما كان ذلك الفعل إلى الذم أقرب منه إلى المدح ، وربما أظهر أمراً حسناً في الظاهر وأحب المدح عليه وقصد به في الباطن شراً (وفرح بتمويه) ذلك وترويجه على الخلق.

وهذا يدخل في قوله تعالى ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨]

فإن هذه الآية إنما نزلت فيمن هذه صفته وهذا الوصف - أعني طلب المدح من الخلق ومحبهه والعقوبة على تركه - لا يصلح إلا لله وحده لا شريك له.
ومن هنا كان أئمة الهدى ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدر منهم من الإحسان إلى الخلق .

الشيخ:

(النسخة الثانية عندك أعمالهم) ، الأعمال أوجه لأنها أعم تشمل العدل وتشمل غيره ،
تشمل العدل بالأحكام وتشمل غيره.

ينهون عن حمدهم على أعمالهم وما يصدرُ منهم من الإحسان إلى الخلق، ويأمرون بإضافة الحمدِ على ذلك إلى الله وحده لا شريك له، فإن النعم كلها منه.

وكان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - شديد العناية بذلك؛ وكتب مرة إلى أهل الموسم كتاباً يُقرأ عليهم ، وفيه الأمرُ بالإحسان إليهم، وإزالة مظالم التي كانت عليهم، وفي الكتاب (ولا تحمدوا على ذلك كله إلا الله ، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنتُ كغيري)

وحكايته مع المرأة التي طلبت منه أن يفرضَ لبناتها اليتامى مشهورة، فإنها كانت لها أربع بناتٍ ففرض لثنتين منهن، وهى تحمدُ الله، ثم فرض للثالثة فشكرته، فقال : " إنما كنا نفرضُ لمن لكنا حيثُ كنتِ تولين الحمدَ أهله " فمري هذه الثلاثِ يُواسينَ الرابعة، أو كما قال - رضي الله عنه -

وحاصلُ الأمرِ أراد أن يعرف أن ذا الولاية إنما هو مُنتصبٌ لتنفيذِ أمرِ الله تعالى، وأمرُ العبادِ بطاعته تعالى، وناهٍ لهم عن محارمِ الله، ناصحٌ لعبادِ الله بدعائهم إلى الله فهو يقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون العزة لله، وهو مع ذلك خائف من التقصير في حقوق الله ايضاً.

فالمحبون لله غاية مقاصدهم من الخلق أن يحبوا الله ويطيعوه ويفردوه بالعبودية والإلهية، فكيف من يزاحمه في شيءٍ من ذلك، فهو لا يريدُ من الخلقِ جزاءً ولا شكوراً، وإنما يرجو ثواب عمله من الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ

وَالْحُكْمَ وَالتَّبَوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩ - ٨٠]

وقال - صلى الله عليه وسلم - ((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ))

وكان - صلى الله عليه وسلم - يُنكر على من لا يتأدب معه في الخطابِ بهذا الأدب، كما قال ((لَا تَقُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، بَلْ قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ ؛ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ

الشيخ:

عندك وحده هكذا اللفظ ساقه ، في النسخة الثالثة عندك ، نعم

في نسختنا ما في.

في النسخة الثالثة عندك "بل ما شاء الله وحده" ؟ نعم .

وقال لمن قال مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ ((أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نَدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ))
فمن هنا كان خلفاء الرُّسلِ وأتباعُهم من أُمراءِ العَدْلِ وقُضاةِهم لا يدعون إلى تعظيم نفوسهم
البتَّة؛ بل إلى تعظيم الله وحده وإفراده بالعبودية والإلهية، ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا
للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده، وكان بعض الصالحين يتولى القضاء ويقول " أنا
أتولاه لأستعين به على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "
ولهذا كانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله، ويتحملون في تنفيذ
أوامر الله تعالى من الخلق غاية المشقة وهم صابرون، بل راضون بذلك، فإن الحب ربما يتلذذ
بما يصيبه من الأذى في رضى محبوبه، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز - رضى
الله عنهما - .

الشيخ :

عندك هكذا - رضى الله عنهما - عندك هكذا؟

نحن نقول عندنا - رحمه الله - ، عندكم هكذا في نسختكم.

هذا الوصف ليس إلا لأصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم- لكن لو قيل مرة في غيرهم لا
بأس وإلا إنما يكون في حق الصحابة ، ولو قيل في حق آحاد من الناس أهل الصلاح والعلم
والفضل مرة لا بأس به جائز؛ لكن المنهي عنه أن يتخذ شعاراً.

كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنهما - يقول لأبيه في خلافته ،
إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل:- " يا أبتِ لوددتُ أني غَلْتُ بي وبك القدورِ في
الله - عز وجل -"
وقال بعض الصالحين: "وددتُ أن جسمي قُرْضُ بالمقاريض وأن هذا الخلق كلهم أطاعوا
الله - عز وجل -"
فَعُرض قوله على بعض المتقدمين فقال "إن كان أراد بذلك النصيحة للخلق وإلا فلا
أدري"

الشيخ:

نحنُ عندنا: " فعرض قوله على بعض العارفين " المتقدمين لا وجه لها، وهنا أراد بالعارفين
الصالحين.

فعرض قوله على بعض العارفين فقال "إن كان أراد بذلك النصيحة للخلق وإلا فلا أدري" ثم غُشي عليه.

ومعنى هذا أن صاحب هذا القول قد يكون لحظ نفسه نُصح الخلق والشفقة عليهم من عذاب الله، وأحب أن يفديهم من عذاب الله بأذى نفسه، وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته، وما يستحقه من الجلال والإكرام والطاعة والمحبة، فودَّ أن الخلق قاموا بذلك، وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته وما يستحقه من الإجلال والإكرام والطاعة والمحبة، فودَّ أن الخلق قاموا بذلك وإن حصل له في نفسه غاية الضرر، وهذا هو مشهد خواص المحبين العارفين بملاحظته، فغُشي على هذا الرجل العارف - رضي الله عنه - وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - في كتابه أن المحبين له يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم. وفي ذلك يقول بعضهم :-

أجد الملامة في هواك لذيدة... حباً لذكرك فليمني اللوم

[الشرح]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلا يزال الحديث مستمراً في هذا القسم الثاني الذي يهلك به الإنسان في دينه، ألا وهو حب الشرف والرياسة والجاه.

فيقول المصنّف - رحمه الله -: إن من هذا الباب يعني الذي يهلك به المرء في دينه ويَفْسُد عليه دينه منه، أن يحب صاحب الرياسة والولاية والشرف أن يُثنى على أفعاله، ويُحمد عليها، ويُشكر بها بين الناس، فيحب أن يستمع إلى ذلك حتى يُعجب به ويفخر به، وربما غضب على من لم يفعل له ذلك، فيمدحه ويثني عليه؛ بل ربما تسبب في إيذائه.

وهذا في الحقيقة شهوة خفية لأنه عمل في الظاهر حسناً لكن مقصده لم يكن حسناً؛ فعمله الصالح في الظاهر أمام الناس صالح لكن مقصده فيه ليس بصالح، إذ مقصده الثناء عليه، فيكون مثل الذين أخبر الله عنهم ممن قرأ القرآن وما أراد الأجر به عند الله؛ وإنما قرأ ليُقال قارئ، وأنفق وتصدق وما أراد به الأجر عند الله، وإنما فعل ذلك ليُقال جواد وليُقال كريم، ومثل الذي جاهد وما أراد إعلاء كلمة الله في الباطن؛ وإنما مقصده في الباطن أن يُقال شجاع وجريء.

فالأعمال ظاهرها صالحة لكن مقصده غير صالح، فكان هؤلاء الثلاثة أول من تُسَجَّر بهم النار يوم القيامة. عياداً بالله من ذلك.

وهكذا هذا الإنسان صاحب الجاه والولاية والشرف الذي يجب أن يسمع المدح والثناء من الناس على أعماله، ففي ظاهره عمل صالحاً، وأما في الباطن فإنه قصد غير ذلك، قصد بهذا العمل الصالح أمراً قبيحاً، ألا وهو المدح.

وفي هذا ينطبق قول الله - جل وعلا -: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ يعني: بما عملوا وما فعلوا ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [عمران: ١٨٨] فمن أحب هذا وفعله لأجل هذا المقصد، فقد أتلَف نفسه وأهلكها وأفسد دينه؛ وفساد الدين هنا أن العمل لم يكن لله، هذا وجهه.

فساد الدين هنا أن العمل لم يكن لله - سبحانه وتعالى -؛ بل أراد به الثناء حتى يُقال هذا السيد عظيم، وهذا السيد كريم، وهذا السيد رحيم، وهذا السيد يواسي الفقراء؛ هذا الوالي كذا، هذا الوالي كذا، هذا الوالي كيت وكيت، هذا القاضي كذا، هذا القاضي كذا، هذا القاضي كيت وكيت.

فعمله وإن كان صالحاً في الظاهر إلا إنه لا شيء له منه، فأفسده؛ أراد أن يتكبر به على الناس، ويتسود به على الناس، ويعظم به على الناس.

ومن علامة ذلك حبه لأن يُثنوا عليه بما عمل، ففسد عليه هذا كله، فهذا مما يفسد به دين هؤلاء الوجهاء، ودين هؤلاء الكبراء ودين هؤلاء المعظمين، إذا عملوا أعمالاً صالحة وما ابتغوا بها وجه الله، والله - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا

وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿[الكهف: ١١٠]، فهذا من الشرك، أن يعمل الأعمال الصالحة ويريد بعمله الدنيا.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُنْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦]

والنبي - صلى الله عليه وسلم - يقول كما في الحديث الصحيح: ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

وهذا الذي نوى بعمله حب المدح والثناء فله ما نوى وله ما أحب، فيأتيه من الناس هذا المدح وهذا الثناء، لكن في مقابل إيش؟ في مقابل إهلاك دينه، وفي مقابل إفساد دينه.

ثم أفاض المصنف - رحمه الله - في ذكر الأمثلة التي هي واضحة في هذا الباب.

ثم ختمها بالنصوص الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم كقوله: ((لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فَقُولُوا : عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ)).

والمراد بذلك الرد على من يحب الثناء بأعماله الصالحة التي أظهرها للناس يسود بها عليهم ويتراءس بها عليهم، فمقصده ما كان سليماً، ففسد بهذا القصد السيء دينه، وهلك دينه نسأل الله العافية والسلامة. نعم.

قال - رحمه الله تعالى - : القسم الثاني طلب الشرف والعلو على الناس بالأمور الدينية

الشيخ:

فهذا الآن بالأعمال الصالحة. القسم الأول. يفسد دينه بإفساده لعمله الصالح، بحيث كان مقصده العاجل، وهو ثناء الناس عليه، الآن القسم الثاني.

القسم الثاني:

طلب الشرف والعلو على الناس بالأمر الدينية، كالعلم والعمل والزهد فهذا أفحش من الأول وأقبح وأشد فسادا وخطرا؛ فإن العلم والعمل والزهد إنما يُطلب بها ما عند الله من الدرجات العلى والنعيم المقيم، ويُطلب بها ما عند الله بالقرب منه والزُلفى لديه.

الشيخ: يعني هذا ما عندنا " ويطلب بها من الله.... " الثانية ما عندنا؛

يطلب به أم بها؟

به وبها، بالذي ذكر وهذه الأصناف كله وجيه يجوز هذا ويجوز هذا؛ نعم

قال الثوري - رحمه الله تعالى -: إنما فُضِّل العلم، لأنه يُتَقَى به الله تعالى، وإلا كان كسائر الأشياء فإذا طُلِبَ بشيء من هذا عرض الدنيا الفاني فهو أيضا نوعان

الشيخ:

فإذا طلب مبني لما لا يُسمى فاعله، وهو الأنسب؛ لأنه لا ذكر للفاعل هنا ، فالأولى أن يُبنى للمجهول.

فإذا طُلب بشي من هذا عرض الدنيا الفاني فهو أيضا نوعان :

أحدهما: أن يطلب به المال ، فهذا من نوع الحرص على المال وطلبه بالأسباب المحرمه .
وفي الحديث عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُتَتَعَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) يعني: ربحها.
خرجه الإمام أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان في "صحيحه " من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم-

وسبب هذا - والله أعلم- أن في الدنيا جنة مُعَجَّلَةٌ وهي: معرفة الله تعالى، ومحبه، والأنس به والشوق إلى لقائه، وخشيته وطاعته، والعلم النافع يدل على ذلك.
فمن دله علمه على دخول هذه الجنة المُعَجَّلَة في الدنيا دخل الجنة في الآخرة، ومن لم يشم رائحتها لم يشم ريحة الجنة في الآخرة.

ولهذا كان أشد الناس عذابًا في الآخرة عالم لم ينفعه الله بعمله، وهو من أشد الناس حسرة يوم القيامة، حيث كان معه آلة يتوصل بها إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فلم يستعملها إلا في التوصل إلى أخس الأمور وأدناها وأحقرها، فهو كمن كان معه جواهر نفيسة لها قيمة، فباعها ببيع أو شيء مستقذر لا يُنتفع به، فهذا حال من يطلب الدنيا بعلمه، وأقبح من ذلك من يطلبها بإظهار الزهد فيها، فإن ذلك خداع قبيح جدا.
وكان أبو سليمان الداراني يعيب على من لبس عباءة، وفي قلبه شهوة من شهوات الدنيا تُساوي أكثر من قيمة العباءة.

يُشير إلى أن إظهار الزهد في الدنيا باللباس الديني إنما يصلح لمن فرغ قلبه من التعلق بها، بحيث لا يتعلق قلبه بها بأكثر من قيمة ما لبسه في الظاهر، حتى يستوي ظاهره وباطنه في الفراغ من الدنيا.

وما أحسن قول بعض العارفين -وقد سئل عن الصوفي- فقال: الصوفي

من لبس الصوف على الصفا *** وسلك طريق المصطفى

وذاق الهوى بعد الجفا *** وكانت الدنيا منه خلف القفا

[الشرح]

هذا النوع الثاني؛ هو حب الشرف وحب العلو على الناس، والرفعة عليهم بالتظاهر. بمظهر العلم والزهد؛ فيُسَوِّدُ الناس ويرفعونه ويجلونه بما أظهره من أمور الدين والعلم والزهد، فيظهر للناس - هذا القسم - يظهر للناس بالعلم والزهد في الدنيا والتدين فيُعَظِّمُهُ الناس بذلك.

يكون مقصوده أن يعظمه الناس بسبب أنه عالم، بسبب أنه زاهد، بسبب أنه من أهل التدين؛ فيسود بهذا، ويعلو ويرتفع بتقدير الناس وإجلالهم إياه، واحترامهم له من هذا الباب الذي أظهره باب العلم، باب التدين، باب العمل، باب الزهد في الدنيا هذا مقصده؛ وهذا خطرٌ عظيم وفساد عريض؛ لأن العلم والورع والزهد في الدنيا إنما يُطلب به وجه الله - تبارك وتعالى -، والدار الآخرة وهذا ما أراد شيئاً من ذلك؛ وإنما أراد التروُّس على الناس والرفعة في الدنيا، والإجلال بسبب ما حصل له من هذه الأمور؛ وهذا قبيح لأنه طلب بالثمين النفيس الحقيقير الخسيس، والثمين النفيس هو العلم والزهد في الدنيا، والدين الذي أظهره هذا هو النفيس، تظاهر به للناس فاحترموه وأجلوه وعظموه وقدروه ورفعوه، وهو يريد هذا، ما أراد بعلمه وجه الله! وإنما أراد هذه العاجلة في الدنيا أن يتشيع على الناس، ويرتفع على الناس؛ إذا أقبل قالوا هذا، هذا! الذي ما مثله، هذا الذي يريده.

فهذا في الحقيقة من أحبث الأعمال وأقبحها وأفجرها، إذ طلب هذا الناقص في عقله ودينه طلب بعمله هذا النفيس الحقيقير الخسيس، طلب الدنيا طلب التروُّس فيها طلب التوقير والتعظيم والإجلال فيها، بينما الأصل أن يكون مطلوبه بهذا العمل النفيس ما عند الله - تبارك وتعالى - من الدرجات العُلى في الجنة.

فإذا كان حبه للشرف بهذه المظاهر والأعمال مفسد لدينه ولا لآ؟ كان مفسداً لدينه عياداً بالله من ذلك.

ولهذا تقدم معنا في حديث الثلاثة الذي قرأ القرآن فيؤتى به يوم القيامة ويُعرفه الله - تبارك وتعالى - نعمه عليه فيعرفها فيقول الله له ماذا عَمِلْتَ فِيهَا؟؟ فيقول: يا رب، تعلمتُ القرآن وعلمته فيك، أو يقول: قرأت القرآن وأقرأته فيك. فيقول الله له: كَذَبْتَ وتقول له الملائكة:

كَذَبْتَ ثم يؤمر به فيُلْقَى عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ لماذا؟ للجواب الآتي، نحن اختصرناه حتى نُجِيب به، قال: ((وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ يُقَالُ قَارِئٌ ، فَقَدْ قِيلَ)). ترأست على الناس بهذا، أردت بقراءة القرآن أن يقال قارئ، جاء القارئ، جاء الشيخ فلان، وهكذا، وقد قيل، هذا حظك، ((ثُمَّ يُؤْمَرُ بِهِ فَيُلْقَى عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ)) نسأل الله العافية والسلامة.

ومثله هنا الحديث: ((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُنْتَعَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا ، لَمْ يَجِدْ عَرَفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)) تعلّم العلم الشرعي لیسود، ويرأس ويُقدم في المجالس، ويوسع له إذا جاء، وهكذا، فهذا حظه من العلم في الدنيا، طلب به الشرف والعلو على الناس في الدنيا، ولم يطلب به ما عند الله، فكان جزاؤه أن حُرِمَ رائحة الجنة يوم القيامة.

ومن عقوبته أن في المعادله - هذا الذي يكتمه - من الجحيم لجأ لم يس كَاللَّحْمِ والذي يطلبه لا يريد به إلا الدنيا، ماذا نتیجته؟

ومن به ليقول الناس يطلبه *** أخسر بصفقته في موقف الندم

ما طلبه إلا ليقول الناس هذا طالب علم، هذا شيخ، هذا عالم، أخسر بصفقته في موقف الندم. بُئِست الصفقة، صفقة خاسرة، تجارة كاسدة، فهذا حال من يطلب التراس والوجاهة في الدنيا بأمور الدين، يحتال للدنيا بأمور الدين - نسأل الله العافية والسلامة -.

وذلك لأن العلم والعمل يجب أن يدلك على الله، وأن يُقربك منه، فإذا لم يدلك على الله، ولم يُقربك منه، كان وبالاً عليك، وهو العلم الذي لا ينفع، ما انتفع به صاحبه في هذه الحياة الدنيا بحب الله - تبارك وتعالى - وبُغض ما عند الناس من العاجل؛ ولكن على العكس أحب العاجل وآثره على الآجل، فكانت نتیجته هذه، وهكذا إذا تظاهر بالعمل وهو لا يريد به الأجر عند الله، إنما أراد به الشاء، هذا الصائم، هذا القائم، هذا القارئ، إنما أراد به الشاء، فهذا أقبح وأقبح؛ لأنه طلب بعمل الآخرة الدنيا، وهو مخادع، فيكون نصيبه الذي أراده من الدنيا، ((أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ))، فهذا منافٍ للإخلاص بالكلية.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ [هود: ١٥]

فهذا أراد الحياة الدنيا، أراد الجاه حصل، أراد الإجلال والتكريم بين الناس حصل، وسعوا

للشيخ فلان، تفضل يا شيخ فلان، هنا يا شيخ فلان، لا تضيقوا على الشيخ. أراد هذا بس! فهذا نصيبه من الدنيا.

العقل ما يكون هذا نصيبه، ما يكون هذا مطلوبه، العقل يطلب هذا العلم؛ ليعمل به هو، فيتقي عذاب الله - جل وعلا-، ويُحصِّل به مرضيه - سبحانه وتعالى-، ويدخره عند الله يوم القيامة؛ ليحصل على الأجر، ويطلب العلم؛ ليُحسن فيه إلى عباد الله، فيعلمهم ما جهلوا، ويصحح لهم ما أخطأوا فيه، ويفقههم به في دين الله -تبارك وتعالى-، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، فيحتسب في ذلك تعليم الناس، يرفع الجاهل عن نفسه فيعمل، ثم يرفع الجاهل عن إخوانه المسلمين، هذا مطلوب العلم، أما أن يكون الأول فهذا غير عاقل -نسأل الله العافية والسلامة-.

وأما ما نقله عن الصوفي فنحن لسنا بحاجة لأن ننقل عن المتصوفة، وهذا من الأشياء التي تؤخذ على المصنف -رحمه الله- في بعض رسائله، نحن لسنا بحاجة إلى مثل هذا، فإن هذه الألفاظ: الصوفي والعارف، من ألفاظ الصوفية.

والمعرفة الحقيقية هي معرفة الله -جل وعلا- بأسمائه وصفاته وأفعاله، وما يجب له علينا من الحقوق - سبحانه وتعالى-؛ ولكن أراد به -كأنه والله أعلم- الرد على طائفة من هؤلاء، وهم الذين يُظهرون التصوف والزهد والفقر، والإعراض عن الدنيا، وهم أكثر الناس جمعاً لها، وتكالباً عليها، فتجد بعض الناس عليه علامات الغنى وهو في الحقيقة لا يجد من الدنيا شيئاً، لكنه يظهر بمظهر الأعرزة، وقلبه عامر بمحبة الله - تبارك وتعالى - ، والرضا عنه، والقيام بما يجب له - تبارك وتعالى - من الحقوق.

وعكسه تماماً تجد المتظاهر بالزهد في الدنيا، والفقر والإعراض عنها، وإذا فتشت وجدته من أكثر الناس حرصاً عليها، وتكالباً عليها، ومن أكثر الناس أرصدة، ونحو ذلك، إذا سألت وجدت الذين يتعاملون معه في الحقيقة على غير من يراه في الظاهر وهو لا يعلمه، فهذا في الحقيقة هو الذي يُخدع الناس، ونحن نعرف من هذا الصنف.

بل قصة سلمان -رضي الله عنه-، قصة إسلامه، وكان فيها مقال فيما ذكره عن رهبان النصراني، يظهرون التمسك والتعبد، كان يأتي إليهم الناس بأموالهم، في قصة الذي التحق به،

كان يأتي إليه الناس بصدقاتهم؛ ثقةً منهم به؛ لأنه عالم وعابد، وكبير من كبرائهم وصُلاحياتهم، فيدفعون إليه أموالهم للصدقات فلا ينفقها، يكتزها، حتى خبأ جراراً عظيمة من الذهب، فلما مات أخبر الناس بأن صاحبهم بئس صاحب، فهذا الخبر جاء كالصاعقة عليهم، كيف؟ فأخبرهم بالخبر، قال: أنتم تأتون إليه بالذهب وتظنون أنه ينفقه، أو يتصدق به على ما تريدون، هو يكتزّه لنفسه، فأرادوا أن يُقيم لهم الدليل على ذلك، ففتح السرداب، وقال: انظروا، فوجدوا الجرار من الذهب، فصار منهم ما صار مع هذا الراهب، فهؤلاء العباد الذين يتظاهرون بالعبادة، وبالفقر والزهد في الدنيا، وهذا حالهم، هؤلاء في الحقيقة مثل هذا الكلام يتجه إليهم.

فالواجب على العبد أن يكون ظاهره وباطنه سواء، إذا أظهر الزهد في الظاهر أن يكون زاهداً في الدنيا في الباطن وإذا أظهر العلم في الظاهر أن يكون موافقاً له في الباطن ، وألا يكون مقصده العلو والرفعة على الناس، والأشر عليهم والبطر عليهم.

قال -رحمه الله تعالى- " النوع الثاني: من يطلب بالعمل والعلم والزهد الرئاسة على الخلق، والتعاضم عليهم؛

الشيخ:

ذاك يطلب الشناء، فحظه منه الشناء، وهذا الآن صاحب العلم يطلب به هنا الرئاسة.

وأن ينقاد الخلق ويخضعون له، ويصرفون وجوههم إليه، وأن يظهر للناس زيادة علمه على العلماء ليعلو به عليهم ونحو ذلك.

فهذا موعده النار؛ لأن قصد التكبر على الخلق محرم في نفسه؛ فإذا استعمل فيه آلة الآخرة كان أقبح وأفحش من أن يُستعمل فيه آلات الدنيا من المال والسلطان.

وفي السنن عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)) خرجه الترمذي من حديث كعب بن مالك.

وخرجه ابن ماجه في حديث ابن عمر وحذيفة وعنده ((فَهُوَ فِي النَّارِ))

وخرجه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث جابر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ((لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ ، وَلَا لِيُتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالْنَّارُ النَّارُ))

وخرجه ابن عدي من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بنحوه وزاد فيه ((وَلَكِنْ تَعْلَمُوهُ لَوَجْهِ اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ))

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال ((لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لثَلَاثَةٍ: لِيُتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيُجَادِلُوا بِهِ الْفُقَهَاءَ ، أَوْ لِيَتَصَرَّفُوا بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ ، وَابْتَغُوا بِقَوْلِكُمْ وَفَعْلِكُمْ مَا عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَبْقَى وَيَفْنَى مَا سِوَاهُ))

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ((إِنْ أَوَّلَ خَلْقٍ تَسْعَرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ...)) منهم العالم الذي قرأ القرآن ليُقال قارئ، وتعلم العلم ليُقال عالم، وأنه يقال له: قد قيل ذلك وأمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. وذكر مثل ذلك في المُتَّصِدِ ليقال إنه جواد، وفي المجاهد ليُقال إنه شجاع.

وعن علي - رضي الله عنه - قال: "ياحملة القرآن بالعلم! اعملوا به، فإنما العالم من عمل بما علم فوافق عمله علمه؛ وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف علمهم عملهم وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقة حلقة، فيباهي بعضهم بعضاً، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس إلى غيره ويدعه؛ أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله - عز وجل -"

وقال الحسن : لا يكون حظ أحدكم من علمه أن يقول له الناس عالم وفي بعض الآثار أن عيسى - عليه السلام - قال: ((كيف يكون من أهل العلم من يطلب العلم ليحدث به ولا يطلبه ليعمل به)) وقال بعض السلف: "بلغنا أن الذي يطلب الأحاديث ليحدث بها لا يجد ربح الجنة"

[الشرح]

هذا القسم - وهو القسم الثاني - : من يطلب بالعلم والعمل والزهد الرئاسة؛ وهو مثل الأول يريد التعظيم على الخلق، ويريد أن يكون الخلق أتباعاً له، يسمعون ويطيعون لا بسبب ولاية؛ وإنما بسبب العلم فيظهر على الناس بهذا، فهذا في الحقيقة أراد العلو والتكبر على الخلق، ولكن بوسيلة العلم، والأحاديث سمعتموها في جزائه ((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ)) هذا هو الشاهد يصرف به وجوه الناس؛ ليعظموه ويجلوه ويرفعوه ويجلوه، ويجعلونه مسوداً ، فهذا هو مقصده؛ يصرف به وجوه الناس إليه ((أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ)) وهذا حديث حسن.

وكذلك الأحاديث الأخرى وساق منها الحديث الذي في الصحيح وقد أشرنا إليه مرات؛ وحديث جابر ((لَا تَعْلَمُوا الْعِلْمَ لِيُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ ، أَوْ لِيُتَمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ ، أَوْ لَتُخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ ، أَوْ لَتُحِيزُوا - يُرَوَى - بِهِ الْمَجَالِسَ)) يعني: يقدم تفضل يا شيخ ! تفضل يا

شيخ ! هذا محل الشيخ ! نعم؛ مقصوده هذا الإجلال التبجيل والتعظيم والتقديم، هذا المقصد به؛ فمن فعل ذلك فالنار النار يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - ((**فَالنَّارُ النَّارُ**))

وَمَنْ يَكُنْ لِيَقُولَ النَّاسُ يَطْلُبُهُ *** أَحْسِرْ بِصَفَقَتِهِ فِي مَوْقِفِ النَّدَمِ

إِيَّاكَ وَاحْذَرْ مُمَارَاةَ السَّفِيهِ بِهِ *** كَذَا مُبَاهَاةَ أَهْلِ الْعِلْمِ لَا تَرُمُ

فالشاهد أنه لما كان مقصده هذا عجل الله له ما أراد في الدنيا، فيقال فيه عالم، قارئ، شيخ جليل؛ علامة ويُقصد - من هذه الألقاب وهذا التفخيم - يقصد التعظيم والظهور على الناس، وكسب الجاه بينهم فيعطى ذلك ولا شيء له عند الله - تبارك وتعالى -

وساق الحديث الذي في صحيح مسلم ونحن قد كررناه، ساقه باختصار، وإلا الحديث كما ذكرناه لكم ((**الذي يقرأ القرآن يُؤتى به فيقال الله له: ما فعلت فيه، فيقول: ياربي قرأت القرآن وأقرأته فيك فيقول الله له: كذبت وتقول له الملائكة: كذبت، ثم يؤمر به فيلقى على وجهه في النار**))

وهذا من الثلاثة الذي أشار إليهم المتصدق بالمال لأجل أن يُقال جواد، والمجاهد لأجل أن يُقال شجاع أو جريء؛ أول من تسعر بهم النار، والحديث صريح ((**إن أول الخلق التي تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة...**))

وهذا العالم استحق أن يكون منهم؛ لأن العلم وسيلة تخلصه من الوقوع في عذاب الله، فَمَا انتفع بها ولكنّه استخدمها في غير ما شرعت له، فَكَانَ وَبَالًا عَلَيْهِ؛ قَصَدَ بِهِ الدُّنْيَا فَنَاسَبَ أَنْ تُسَعَّرَ بِهِ النَّارُ قَبْلَ غَيْرِهِ، وَمِنْ هُنَا انْتَزَعَ صَاحِبُ الزُّبْدِ قَوْلَهُ:

وَعَالِمٌ بَعْلِمِهِ لَمْ يَعْمَلْ ***** مُعَذَّبٌ مِنْ قَبْلِ عِبَادِ الْوَثْنِ

أَوَّلُ مَنْ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ فالواجب على العالم وطالب العلم أن يكون علمه المقصود به وجه الله والدار الآخرة للأغراض التي ذكرناها

- رفع الجهل عن نفسه
- وعبادة ربه على علم
- ثم تعليم الناس الخير و دعوتهم إلى الله - تبارك وتعالى -

ولا يكون حظّه من العلم أن يقول الناس عالم وشيخ ونحو ذلك؛ فإذا كان هذا مقصوده هلك عياداً بالله من ذلك ، فالعلم يُورث صاحبه التواضع، و يورث صاحبه الخشية؛ ومن كان على هذه الصورة فقد ثمره العلم.

ومن هنا ذكر المصنّف -رحمه الله- كراهة بعض السلف للذي يطلب الحديث لا لشيء إلا ليحدث به؛ يعني: ما يريد أن يتعلّم هو، ما يريد أن ينشر سنّة النبي - صلى الله عليه وسلم- في الناس؛ وإنّما أراد أن يُقال عنه محدث، يقال عنه مُسنّد، يقال عنه راوٍ ويقال عنه كذا من هذا القبيل هذا مقصده، فحينئذ يحصل على هذا الذمّ و يدخل تحت حديث ((لم يرح رائحة الجنّة)) لأنّه ليس له مقصد شرعيّ صحيح؛ من تعلّم الحديث ، لا قصد أن يتفقه فيه، و لا قصد أن ينقله إلى من يتفقه فيه، فقصد نشر السنّة؛ كما قال النبيّ - صلى الله عليه وسلم- ((نَضَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَوَعَاهُ فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ قُرْبَ حَامِلٍ لَفَقَهُ لَيْسَ بِفَقِيهِ، وَرُبَّ فَقِيهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ))

فإذا لم يتفقه بنفسه ما كان مقصده أن ينشر هذا الفقه و يبلغه لغيره ليتفقه فيه لا؛ وإنّما قصد أن يُقال مُسنّد، مُحدث، راوية ، حافظٌ ونحو ذلك ؛ فمثل هذا ليس له إلاّ العاجل نسأل الله العافية والسّلامة.

وهذه الآثار مع هذه الأحاديث المقصود منها تصحيح النية في طلب العلم، وليُعلم أنّه قد يُبدأ بالطلب ويأتي الطالب شيئاً من هذه المنعصات؛ لكن عليه أن يجاهد نفسه وليعلم أنّه إذا تقدّم بالعلم وأخلص في طلبه سيورّثه - إن شاء الله تعالى - تحسين النية و تصحيح النية؛ لأنّه كلّما تقدّم و قرأ النصوص التي مثل هذه والمحدّرة من طلبه لغير وجه الله -تبارك تعالى- أثر ذلك فيه، فإن لم يجد مع هذا كلّ أثر فأعوذ بالله من ذلك فقد هلك نسأل الله العافية والسّلامة.

قال رحمه الله: وفي هذا القبيل كراهية السلف الصّالح الجرأة على الفتية والحرص عليها والمُسارعة إليها والإكثار منها.

الشيخ:

حتى يُقال مُفتي عالم، اسألوا فلان، ارجعوا إلى فلان، هذا هو المُفتي؛ مقصدهُ هذا.

روى ابن لهيعة عن عبيد الله بن أبي جعفر مرسلا عن - النبي صلى الله عليه وسلم - قال -
: ((أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا ، أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ)).

وقال علقمة كانوا يقولون: " أجروكم على الفتية أقلكم علما. "

وعن البراء قال: أدركت مئة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُسألُ أحدهم عن المسألة ما منهم من أحدٍ إلّا وودَّ أن أخاه كفاهُ.
وفي رواية فيردُّها هذا إلى هذا وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأوّل.

[الشرح]

هذا المشهور من قول ابن أبي ليلي عبد الرحمن، لا أدري كيف وجهه هنا!
المشهور هذا أنّه من قول عبد الرحمن بن أبي ليلي: " أدركت مئة وعشرين من الأنصار من
أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يُسألُ أحدهم عن المسألة ما منهم من أحدٍ إلّا
ودَّ لو أن أخاه قد كفاه " أو " أن صاحبه قد كفاه " هذا وهذا كلّ واحد، هذا المعروف عن
ابن أبي ليلي، هكذا بهذا عن ابن أبي ليلي.
"أدركت عشرين ومئة من الأنصار، هذا قول ابن أبي ليلي.

وعن ابن مسعود-رضي الله عنه-قال: إنّ الذي يُفتي الناس في كلّ ما يستفتونه
لمجنون.

[الشرح]

صحيح إنّ الذي يُفتي الناس في كلّ ما يستفتونه لمجنون؛ يعني: ما عنده مكان لقوله لا أعلم،
ما عنده مكان لقوله أنظر، أتأمل؛ كلّما سُئل أفتى من غير رويّة؛ وهذا المقصود به التروّي
والتأني والتثبت، وعدم العجلة، هذا مقصودهم به، ما هو الهجوم على الفتوى والسرعة في

ذلك؛ لأنّ الأمر خطير، فالناس قد يأخذون عنك هذه الفتوى فيطربون بها، ويعملون بها؛ فإن وقعوا في الخطأ فأنت السبب في هذا، فعليك أيّها المفتي أن تكون مُتريثاً.

وسُئل عمر بن عبد العزيز عن مسألة فقال: "ما أنا على الفتيا بجريء" وكتب إلى بعض عماله فقال: "ما أنا بجريص على الفتيا ما وجدت منها بدا". وقال ابن عيينة: "وليس هذا الأمر لمن ودّ أن الناس احتاجوا إليه؛ إنّما هذا الأمر لمن ودّ أنّه وجد من يكفيه" وعنه أنه قال: "أعلم الناس بالفتوى أسكتهم وأجهلهم بها أنطقهم".

[الشرح]

أعلم الناس بالفتوى أسكتهم" يعرف ما معنى الفتوى فيسكت. والمقصود بالسكوت هنا إن كان يوجد من يكفيه فيفتي، لأنّها لم تتعين عليه فهو يطلب السلامة. إن كان يوجد -هذا المقصود- أسكتهم المقصود به: أنه يُخرّج على هذا النحو: هو إن كان هناك من يفتي (غيره) فيوجد من يكفيه فإنّه يسكت طلباً للسلامة؛ لأنّها في حقّه فرض كفاية، وقد قام بها غيره فسقطت عنه. أو يسكت -يُخرّج على الوجه الثاني- حتّى ينظر الوجه فيها ويتأمّل الأدلة ليصل إلى الصواب، والراجع فيها فلا ينطق إلّا بعد تأمل ونظر، ولا يهجم على الفتوى بمجرد أن يُسأل يُجيب مباشرة.

قال-رحمه الله-:"وقال سفيان الثوري-رحمه الله-:أدركنا الفقهاء وهم يكرهون أن يُجيبوا في المسائل والفتيا، حتى لا يجدوا بُدّاً عن أن يُفتوا، وإذا أعفوا منها كان أحبّ إليهم.

[الشرح]

هذا هو وجهه كما ذكرنا يعني: العالم الحقيقي، والفقهاء الحقيقي هو الذي يدرؤ الفتيا ما

استطاع عن نفسه مادام يوجد غيره يدع الفتيا له ، ليست واجبة عليه، قد سلمه الله منها والفتيا سهلة؟ ليست سهلة ((أَجْرُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا ، أَجْرُكُمْ عَلَى النَّارِ)) ((مَنْ أُفْتِيَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى مَنْ أَفْتَاهُ)) ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل : ٢٥]

فالفتيا ليست هينة، هي إخبار عن حكم الله - تبارك وتعالى - وحكم رسوله - صلى الله عليه وسلم - هي توقيع عن الله - جلا وعلا - فالعالم الحقيقي هو الذي لا يُفتي حتى لا يجد بداً من أن يفتي، وإن أعفي فهو أحب إليه ، وذلك طلباً لسلامة نفسه ولنجاتها؛ فإن السلامة والنجاة رأس مال لا يعدلها شيء.

وهذا حال السلف - رحمهم الله - قد جاء شخص إلى الإمام مالك وسأله عن مسألة ، ثم قال له مسألة يسيرة أسألك عنها ، فتغير وجهه - رحمه الله - وقال: - " ليس من العلم شيء يسير ، ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [الزمل : ٥]

فالعلم ثقيل، العلم ثقيل، ومسؤوليته خطيرة، وسيأتينا كلام الأئمة في هذا. وأحمد - رحمه الله - لما سُئل عن الفتوى قال: " من عرض نفسه للفتوى فقد عرضها لأمر عظيم؛ إلا أنه قد تلجئ الضرورة " يعني: إذا ما وجدوا غيرك في بلدك ما يجدون غيرك، فيتعين عليك وقد آتاك الله علماً أن تقول بما تعلم، الضرورة تلجئ، أما إذا كان يوجد غيرك فالحمد لله على السلامة والعافية .

وقال الإمام أحمد - رضي الله عنه - من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها أمراً عظيماً، إلا إنه قد تلجئ إليه ضرورة .

[الشرح]

الضرورة إذا لم يجدوا سواك؛ نعم ضرورة -الله يعينك- وعليك أن تبتهل في تحري الصواب ، إذا ألجأت الضرورة فاطلب العون من الله واجتهد في تحري الصواب، وإن كنت لا تعلم فقل لا أعلم وابحث ولا تُجازف فتهلك نفسك وغيرك، هذه الثلاثة الأمور لابد منها إذا

ألجأت الضرورة:-

- فاجتهد.
- وتحرّ الصواب.
- وإذا كنت لا تعلم فقل لا أعلم؛ وابحث ولا تجازف، فتفتي بغير علم فتهلك نفسك وغيرك.

قيل له: فأيهما أفضل الكلام أم السكوت؟

قال: الإمساك أحب إلي ،

قيل له: فإذا كانت الضرورة؟.

فجعل يقول الضرورة الضرورة ، وقال: الإمساك أسلم له.

[الشرح]

مادام يجد من يكفيه فالإمساك أسلم له.

الضرورة الضرورة يعني: كأنهما وافق هذا السائل، كل واحد يقول ضرورة، لكن إذا نظرت تجد ما في ضرورة، تجد عشرين عالماً في هذه البلد، أو في هذا القطر الذي أنا فيه ما في ضرورة، قالوا له "الضرورة.. الضرورة" فلما قالوا له هذا الكلام قال: "الضرورة.. الضرورة" (هو في بغداد) كم في بغداد من العلماء في زمانه فقال هذا القول "الإمساك أسلم" يعني: مادام غيرك موجوداً فالإمساك أسلم، وإلا هو نفسه قال: "إلا إنه قد تلجئ الضرورة" فهناك حقيقة في قوله: "إلا إنه قد تلجئ الضرورة". يعني: إذا لم يوجد سواك، أما هنا لما قالوا له: "إذا كانت الضرورة ما أعجبه قول القائل: "إذا كانت الضرورة"، قال: "الضرورة الضرورة" يعني: كلامه ماهو صحيح بغداد فيها غيره؛ نعم وهكذا في القطر أي قطر كان إذا كان فيه علماء آخرون وقال: "الإمساك أسلم" يعني: إذا كانت كلمة الضرورة دعوة ليست حقيقية يوجد علماء، "الضرورة الضرورة" قال هكذا؛ يعني: مُستنكراً لهذا.

وليُعلم المُفتي أنه يوقع عن الله أمره ونهيهِ ، وأنه موقوف ومسؤول عن ذلك

[الشرح]

هذه كلها الآن آداب في الفتيا والمفتي، جرنّا إليها حب التروّس بلباس العلم؛ إذ من التروّس بلباس العلم التظاهر بكثرة العلم، والتنصب للفتيا؛ فجره هذا - رحمه الله - إلى أن يتكلم ويذكر هذه الأمور في باب الفتوى - رحمه الله -.

وقال الربيع بن خازن أيها المفتون اكتبوا كيف تفتون.
وقال ابن دينار لقتادة لما جلس للفتيا تدري في أي عمل وقعت ، وقعت بين الله وبين عباده ، وقلت: هذا يصلح وهذا لا يصلح.
وعن ابن المنكدر قال: إن العالم داخلٌ بين الله وبين خلقه.

[الشرح]

إن العالم داخلٌ بين الله وبين خلقه (واسطة) هذا حلال، هذا حرام؛ فيعملون بهذا ويتركون هذا، يرجون ثواب الله في هذا، ويخافون عقابه في هذا؛ فهو داخل بين الله وبين خلقه، إذ لو لم يقل لهم هذا حلال ما عملوا لو لم يقل لهم هذا حرام ما كفوا ، فهو وسط داخل بين الله وخلقهم واقعٌ بينهما وموقع عن الله - جلا وعلا - .

قال:- إن العالم داخل بين الله وبين خلقه فليذكر كيف يدخل عليه
وكان ابن سريّن إذا سئل عن شيء من الحلال والحرام تغير لونه وتبدل، حتى كأنه ليس
بالذي كان .

وكان النّخعي يُسأل فتظهر عليه الكراهة ويقول: ما وجدت أحدًا تسأل غيري؟! وقال قد
تكلمت ولو وجدت بدا ما تكلمت.
وإن زمانًا أكون فيه فقيه الكوفة لزمانٌ سوء.

[الشرح]

هذا وهو إبراهيم النخعي - إبراهيم بن يزيد النخعي - يقول هذا عن نفسه فكيف بنا اليوم؟
الذي أصبح فيه كثير ممن يُقال عنه إنه شيخ ومفتي، يُفتي بفتاوى مناقضة لصريح المنطوق من
كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومخالفة له.
فهؤلاء هم علماء السوء - عيادًا بالله من ذلك - إن قيل إنهم علماء، أو سلمنا بأنهم علماء،
فهم علماء السوء؛ وإلا فكثير منهم ليس من العلم في قليل ولا كثير، وخصوصًا في هذه الآونة
التي كثرت فيها المخطات الفضائية، وأصبح الممثل بالأمس اليوم شيخًا، وأصبح المُفحط
بالسيارة أمس اليوم شيخًا، وأصبح المغني بالأمس اليوم شيخًا، ونحن لا نعييه بأمر تاب منه، لا
والله! فهذا حبيب إلى أنفسنا، لكننا نعييه أن أقعد نفسه مقعد أهل العلم ولم يتعلم، ترك
التفحيط بالأمس واليوم على طول بعدما تاب أخرجوه للناس شيخًا يُفتي وما تعلم شيئًا.
هو بالأمس يُصَفَّقون له بالحلبة وهو يُفحط، وكما يقولون بلغة أهل التفحيط يُخَمَّس، يكتب
خمسات إمّا في الاسفلت وإمّا في الرمل، فهذا يحتاج إلى زمان بعد توبته إلى أن يتعلّم، ولا
مانع أن يذكر نعمة الله عليه، إذ نقله من حال إلى حال، أما أن يتوب اليوم -ونسأل الله أن
يتقبل منه ويغفر لنا وله - ويخرج على الناس مُفتيًا! هذا ما يصلح وهذا الذي تروونه أنتم
اليوم، يُصبح يتكلم عن الدين وهو لا يعلم عن الشرع شيئًا، والناس للأسف يقبلون، فمثل

هذا هو الهلاك، أمس كانت السُّمعة له مع الجيل الأول بمهنته الأولى التي كان عليها، التفحيط .. التمثيل .. التهريج، اليوم يريد أن يسود، لكن ما وجد طريقة، فظهر باسم الشيخ وباسم المفتي وباسم العلم، فكم من مسألة سمعناها من هؤلاء من ضروريات الدين والبدهيّات تسمع فيها الجهالات، وبعضهم سمعنا بعض أشرطته، حديقة حيوانات وهو في المسجد ، مرة يُقلّد صوت البقرة ومرة يقلّد صوت الدجاجة ومرة يقلّد صوت الديك ومرة يقلّد ما أدري إيش! نسيت الأصوات التي مرت بي في هذا الشريط، قلت لهم هذا في درس؟ في المسجد؟ قالوا نعم. هذا ما أصبح درسًا هذا أصبح حديقة حيوانات، فالعالم ما هذه صفته وأهل العلم ليست هذه صفاتهم.

فالشاهد مسألة الفتيا أمرها خطير وأمرها عظيم ولا يتكلم بها إلا من اتصف بالعلم ، والمتصفون بالعلم هذا حاله؛ إبراهيم بن يزيد النخعي يقول: " لو وجدت بدا ما تكلمت وإن زمانا أكون فيه فقيه أهل الكوفة لزمان سوء" حدّهم الزمان أن أكون أنا فقيهم زمان سوء؛ يعني: العلماء راحوا ما عاد بقيت إلا أنا؟ الله يخلف عليهم ما دمت أنا فقيهم. هذا هو إبراهيم النخعي؛ الإمام العابد العالم الفقيه الزاهد الورع الجبل - رحمه الله تعالى -، فما عسى أن يقول من دونه بآلاف المرات فنسأل الله العافية والسلامة. فباب الفتيا معشر الإخوة والأبناء من الأبواب التي يُدخل بها على الإنسان، ويتلف بها دينه، لأنّها ترؤّسُ بالعلم على الناس، وتسوّد على الناس بالعلم فيهلك الإنسان منها، نسأل الله العافية والسلامة.

وروي عن ابن عمر قال: "إنكم لتستفتوننا استفتاء قوم ، كأنا لا نُسأل عما نفتيكم به." وعن محمد بن واسع قال: أول من يُدعى إلى الحساب الفقهاء. وعن مالك : أنه كان إذا سُئل عن المسألة كأنه واقف بين الجنة والنار.

[الشرح]

يرتعد ويخاف، ويتغير ؛ يحسب للمسألة حسابها، ما همّ أن يُفتي ، همّه في الخلاص، ينظر ماذا يُقال له يوم القيامة إذا أفتى بهذه الفتيا؟ يسلم من تبعثها أم لا؟

وقال بعض العلماء لبعض المفتين: إذا سُئِلت عن مسألة فلا يكن همك تخليص السائل ولكن تخليص نفسك أولاً.
وقال آخر: إذا سُئِلت عن شيء فتفكر فإذا وجدت لنفسك مخرجاً فتكلم وإلا فاسكت.

[الشرح]

المُحشّي هنا يقول عن هذا العالم " بعض العلماء لبعض المفتين " قال هو عمر بن خَلْدَةَ الزُّرقي والمُخاطب بذلك هو ربيعة بن عبد الرحمن ، فالشاهد من ذلك ، يوصيه بعدم العجلة ، لا تفكّر بأن يُقال عنك العالم ، وإذا لم تفتهم قالوا: والله لا يعرف.
لا تفكر في هذا، فأنت لا تحرص على ألا يُتكلّم فيك ، لا يُقال عنك إنك لا تعرف، ما عندك علم ، لأ، فكّر في المخلص، إذا كان لك مخرج فتكلّم، وإلا فاسكت، لا يهّمك أن يقولوا ما عنده علم ، ليقولوا ما عنده علم مع السلامة لك أعظم ، نعم ما يضرّك.

وكلام السلف في هذا المعنى كثير جداً ويطول ذكره و استقصاؤه...

قف على ذلك والله أعلم ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان.

الأسئلة:

السؤال:

هناك كثير من الأئمة في هذه الأيام يدعون دعاء النوازل في الصلاة ، صلاة المغرب والعشاء ، فهل نتابع الإمام في ذلك؟

الجواب:

نعم، إذا صليت خلف إمام يدعو برفع البلاء الذي نزل على المسلمين وبالمسلمين في هذه الأيام فأمن.

السؤال:

إذا نقلت فتوى عن عالم ربّاني ، هل أكون أفّيت أنا؟ وأنا أقول للذي أنقلها له: أنا لا أعلم ولكن سمعت الفتوى من العالم كذا..؟

الجواب:

إذا نقلت الفتوى عن العالم ، فأنت ناقلٌ للعلم؛ لكن أوصيك أن تضبط الفتوى التي تنقلها ، فإذا ضبطت الفتوى ونقلتها كما قالها العالم ، فلا شيء عليك، إذا أدّيتها في الحال المشابهة للحال الذي استُفتيَ عنها العالم فأفتَ فيها ، فجاءت حالة مشابهة لها ونقلت تلك الفتوى ضابطاً لها ، فلا شيء عليك.

السؤال:

إني أحبك في الله ، أحسن الله إليكم ، إذا لم يترضَ المؤلف عن الصحابي ، فهل يُترضى عنه؟

الجواب:

نعم. يُترضى عنه . هذا أولاً .

وثانياً: ينبغي لمن يقرأ الكتب ألا يغيّر ألفاظ الكتاب، المؤلفين ، فإذا قال - رحمه الله - يقرأ رحمه الله وإذا قال - رضي الله عنه - يقول رضي الله عنه ، ولا يترّد عليه، وإذا لم يُصلِّ على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، صلّى على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وإذا لم يُترضَ عن صحابي ، ترضّى هو عن الصحابي ؛ لأن بعض العلماء يختصر حال الكتابة وينطق بالصلاة والسلام على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، والترضى عن الصحابة ولا تكتب، فيطبع المخطوط على حاله.

السؤال:

وهذا يسأل عن حديث الاثنى عشر خليفة وما أحسن في سياقه إذ رواه بالمعنى ، والحديث معروف ، يقول: إنه يفهم ، فهل يُفهم منهم أنهم هم الأئمة الاثنى عشرية عند بعض الفرق الضالة كما يدعون ذلك ؛ أرجو منكم بيان ذلك؟

الجواب:

هذا حديث سمرة قد رواه عبد الرحمن بن سمرة عن أبيه؛ وهو عند أبي داوود في كتاب المهدي وهو أول حديث فيه، وفي سنده عند أبي داوود جهالة لكنها لا تضره إذ الحديث مُخَرَّج في الصحيحين ولفظه ((لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا مَا وَلِيَ اثْنِي عَشَرَ خَلِيفَةً))

يقول عبد الرحمن: ثم سمعت كلاماً لم أفهمه فقلت لأبي ما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - قال ((كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ))

فهؤلاء الاثني عشر خليفة لا حُجة للرافضة فيهم، فإن الرافضة يستدلون بهم على أنهم الأئمة الاثني عشر -تمام- ولا حجة لهم في ذلك، وذلك للآتي:

أولاً: النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول هنا ((لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا مَا وَلِيَ اثْنِي عَشَرَ خَلِيفَةً)) أو أمير كلهم من قريش لفظ في الصحيح أمير ((ما ولي عليهم اثني عشر أميراً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ)) فهل الأئمة الاثني عشر كلهم خلفاء؟ وأنا أسألكم أئمة الرافضة الاثني عشر الذين يزعمونهم زورا وبهتاناً ونحن أولى بهم منهم هل كانوا خلفاء؟ ما ولي الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- هذا أولاً.

ثانياً: الحسن بن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- وتنازل عن الخلافة للصالح بين الأئمة ، تنازل عنها لمعاوية وتحقق فيه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - ((إِنْ أَبَى هَذَا سَيِّدٌ ، وَسَيُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)) فتحقق قول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأصلح الله بالحسن -رضي الله عنه وعن أبيه- بين فتنين عظيمتين من المسلمين وسُمي ذلك العام بعام الجماعة.

والرافضة يقولون عن الحسن مُذِل المؤمنين فكيف هنا يدعون أنه من أئمتهم الاثني عشر، وهم يُلقبونه بمُذِل المؤمنين هذا أولاً.

إذاً ((ما ولي عليكم اثني عشر خليفة أو اثني عشر أميراً كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ)) وهؤلاء ما ولي من الأئمة الذين يزعمون أنهم أئمتهم إلا اثنين والبقية هل تولى واحد من هؤلاء الخلافة؟ كل بقية الاثني عشر ما منهم واحد ولي الخلافة ولا الإمارة فهذا رد وإلا لأ؟ هذا واحد الثاني.

الثالث: النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: كلهم من قريش وهم يقولون بس آل البيت، كلهم من قريش وآل البيت جزء من قريش.

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر *** فبعد مناف سرها وصميمها

وإن حصلت أشراف عبد منافها *** ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإن محمداً *** هو المصطفى من سرها وكرمها

فقريش أعم من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فالنبي يقول: ((كلهم من قريش)) وهؤلاء يقولون إيش؟ من آل البيت.

رابعاً: قد بين العلماء هذا الحديث ووقفوا عند قوله: ((لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا)) فأنا أسألكم: هل تولى أحد من بعد الحسن من هؤلاء الاثنى عشر وظهر الدين وقوي في زمانهم؟ أنا أسألكم الآن؟ هل ولي أحد من بعد الحسن - رضي الله عنه - من هؤلاء الاثنى عشر الذين يزعمونهم الروافض فقوي الدين على يديه وجاهد المخالفين وأخضع الناس للدين حتى ظهر الدين عزيزاً، حصل هذا؟ لا ، هذا التاريخ مكشوف أمامنا جميعاً ما حصل لأحد فهذا خلاف ما أخبر به النبي - صلى الله عليه وسلم -.

وخامساً: العلماء تتبعوا هؤلاء الاثنى عشر فوجدوهم قد انتهوا بدولة بني أمية ، هذه الدولة التي لا يطيق ذكرها الرافضة تماماً، ونحن نذكرها رغماً عنهم فإن أول خلفائها خير الملوك بعد الخلفاء الراشدين أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - بل - رضي الله عنهما - ، صهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخال المؤمنين وكاتب الوحي لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

فالشاهد: الخلفاء الأربعة أولهم تكملة الخلافة بالحسن، وكملوهم بدولة بني أمية ؛ فإن الدين كان في عهدهم قوياً عزيزاً منيعاً ظاهراً ، فالفتوحات كانت في عصرهم الفتوحات الإسلامية كانت في عصر دولة بني أمية ، بنو العباس ما زادوا ولا شبراً، أهل البدع والأهواء والشعوبيون كانوا مقهورين في دولة بني أمية، وقد اشتهر خلفاء بني أمية بمتابعة الزنادقة وأهل البدع، ولذلك ما قامت في زمانهم البدع كما قامت في عهد دولة بني العباس فكان الدين ظاهراً قوياً عزيزاً ، دولة بني العباس أول ما قامت يقول: الذهبي فيها ثم كان ماذا؟ ردّاً على الذين ينتقدون دولة بني أمية قال ثم كان ماذا؟ "جاءت دولة بني العباس أبي العباس السفاح أبو مسلم الخراساني دولة شعوبية باغية سفاكة ظلمة" أو نحو ذلك من كلامه وهذا حال من

استقرأ التاريخ، والذهبي من أهل الاستقراء ولا شك من نظر في حال التاريخ وجد هذا فأول ما جاءت دولة بني العباس ما هي إلا أيام قلائل وحصل الانفصال في الأندلس، وبعد ذلك تبعه مدة الانفصال لأطراف المغرب، ثم قيام بعض الدول في بلاد المشرق وهكذا، اليمن بعد ذلك قامت فيه الدولة الزيدية لآل البيت وبقيت إلى أن سقطت بالثورة الحالية الجمهورية الحالية، وقد أشار إلى هذا الحافظ ابن حجر في فتح الباري.

فالشاهد تقطعت الدولة الإسلامية إلى قطع وإلى أوصال وإلى أجزاء، وظهرت الفتن فيما بعد وحصل ما حصل فلم يكن الدين ظاهراً ولا عزيزاً فلا حجة لهؤلاء في هذا الحديث البتة.

ولعلنا نقف عند هذا والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.